الفصل الثاني

الحياة في أثينا

مما ذكرنا سابقاً يتضح الطابع المدني للمسرح اليوناني بعامة وللتراجيديا بخاصة، فالمدينة هي التي أعطته جوهره، وحين نقول المدينة فإننا نعني (أثينا) المدينة – الدولة، البلدية، الأمة، المجتمع المغلق، العالم المنفتح.

تشمل دولة أثينا مقاطعة (أتيكا Attika). وكان سكان هذه المقاطعة يطلق عليهم جميعاً اسم (الأثينيين) ويتمتعون بحقوق المواطن الأثيني. تفيد كلمة (أتيكا) نفسها معنى (بلاد ساحلية)، وفي الحقيقة فإن هذه المقاطعة ليست سوى شبه جزيرة متقدمة داخل البحر ومجاورة لمعظم الأجزاء المهمة من العالم اليوناني، وبذلك فقد توفرت لها جميع الشروط اللازمة للسيادة الاقتصادية والسياسية والفكرية، ومن ثم كان وضع الطبقات بدوره متعادلاً متوازياً الأمر الذي مكن لقيام الديمقراطية.

ترتبط كل انجازات أثينا العظيمة في ميادين الحضارة والثقافة خلال العصر الكلاسيكي (القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد) باسم واحد من ألمع السياسيين، وأعني به بريكليس الذي ظل الأثينيون ينتخبونه واحداً من القادة العشرة طوال ثلاثين عاماً (من 467 إلى 438) باستثناء فترات قصيرة.

لقد توافق بلوغ الحضارة الأثينية قمة مجدها مع بلوغ النظام الديمقراطي فيها، على أيام زعيمها بريكليس قمة تطوره وكماله. وإذا أردنا معرفة الأسباب الحقيقية لتلك الحيوية الديناميكية التي يتصف بها أهل أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، فعلينا أن نجدها في نجاحهم الباهر في حقول المعرفة المختلفة وفي تجاربهم المستمرة. فإن الخبرة ذاتها التي اكتسبها مقتلع الحجارة ومهذبها، والخبرة التي تكدست عند العمال الآخرين الذين كانوا يعملون في بناء الهياكل والأبنية لم تكن لتقل عن القيمة التثقيفية للأعياد والمهرجانات التي كانت تقيمها الدولة أو المقاطعات الصغيرة. لأن ستين يوما من أيام السنة كانت تكرّس للاحتفال بهذه المناسبات، وكانت جوقات الغناء تتطلب خدمات ألفي شخص من الصبيان والرجال، فلم يكن أهل أثينا

مجرد جماعة من المتفرجين في المسارح التمثيلية، بل إنهم يشتركون اشتراكا فعليا في الاستمتاع بأدب حي، وفي فترة كان فيها الفنانون والكتاب من جميع أنحاء بلاد الإغريق يجتمعون في أثينا. ولكن أهم من هذا كله كان اشتراك المواطنين الأثينيين في تصريف شؤون حكومة إمبراطوريتهم الصغيرة اشتراكا تاما.

إنَّ الضريبة التي فرضتها أثينا على ملحقاتها في الإمبراطورية كانت تعين الجماهير على الاشتراك في أمور الحكومة والاحتفال بالأعياد وببناء المباني والهياكل، ولكن بما أن الأثينيين برهنوا في القرن التالي على أنهم يستطيعون أن يقوموا بهذه الأعباء المالية وحدهم، لا بل إنهم يزيدون من قيمة هذه الضريبة لكي يوفروا دفع النفقات لهذه الشؤون العامة بعد أن تقلص ظل الإمبراطورية، فقد وضح لهم أن هذه الضريبة التي كانوا يفرضونها على الأتباع لم تكن ضريبة حيوية لا يستغنى عنها. إلا أن قولنا هذا لا يعني أن هذه الضريبة لم توفر للناس كجماعات أن يشتركوا في هذه الاحتفالات، بل إنها كانت عاملا في ترسيخ هذه التقاليد وجعلها عرفا متبعا. نعم إن الرق أسفر عن قيام فئة تنعم بالتفرغ من الأعمال. غير أن الرق في بلاد الإغريق كان على مستوى بسيط محدود وليس كما كان في الإمبراطورية الرومانية وفي العهود التالية. ولكن الاستنتاج المحتم هو أن نجاح الأثينيين وتقدمهم كان يعزى إلى الرؤى البعيدة التي كان يراها الناس، وإلى الكد والجهد في العمل الذي كانوا يتولون القيام به، فإنهم على مر الأجيال، كانوا يجهدون باستمرار في سبيل توفير ديمقراطية أكثر شعبية، وقد تم لهم تحقيق هذه الديمقراطية في الوقت الذي انتصرت فيه أثينا في حروبها وفي إنشائها إمبراطورية. أما حصة الأسد فكانت من نصيب رجال أثينا، فقد كان العصر عصر الرجال وعلى مستوى أوسع بكثير مما كان عليه في القرن السابق والقرن الذي تلاه.

أما النساء المحصنات فكن يلازمن بيوتهن ولم يكن يخرن إلى الخارج إلا في المآتم والأعراس والأعياد. أما في مجتمع الرجل فقد كانت النساء المثقفات تظهر في صحبة الرجال. وقد كن يعرفن بالصواحب أو الرفيقات وكن من خارج أثينا كما كانت مثلا صاحبة بركليس (اسبازيا) الشهيرة التي جاءت من ميلتوس في أسيا الصغرى.[1]

---

[1] تشارلز الكسندر روبنس: أثينا في عصر بريكليس، ترجمة د. أنيس فريحة، مكتبة لبنان، ص 159 – 161.

ولم يكن الأثينيون يرون في اتصال الشبان بالخليلات شيئا من العار، ولقد كان في وسع المتزوجين أنفسهم أن يبسطوا حمايتهم علة تلك الخليلات، ولا ينالهم لهذا السبب عقاب أخلاقي أكثر من تأنيب زوجاتهم في بيوتهم، وشيء قليل من سوء السمعة في المدينة. وكانت أثينا تعترف بالبغاء رسمياً وتفرض ضريبة على البغايا، وأصبح العهر في أثينا، كما أصبح في معظم المدن اليونانية مهنة كثيرة الرواد.[1]

كانت الأسرة اليونانية تتكون من الأب والأم والأولاد والعبيد. وقد بقيت هذه الأسرة إلى آخر تاريخ اليونان أقوى الأنظمة في الحضارة اليونانية لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادي وأداته في الزراعة والصناعة. وكان للأب في أتيكا سلطان واسع ولكنه اقل من سلطان الأب في روما. فقد كان في وسعه أن يعرِّض الطفل الحديث الولادة للموت، ويبيع عمل أولاده القاصرين وبناته غير المتزوجات، ويزوج بناته لمن يشاء. ولكن القانون الأثيني لم يكن يجيز له أن يبيع أبناءه أنفسهم، وكان كل ولد من أولاده إذا تزوج يخرج عن سلطان أبيه، وينشئ لنفسه بيتاً خاصاً ويصبح مستقلاً في المجتمع[2].

وكان ينتظر من كل مواطن أثيني أن يكون له أبناء، وقد اجتمعت قوى الدين والملكية والدولة، كلها لمقاومة العقم. فإذا لم يكن للأسرة أبناء من نسلها كان التبني هو العادة المتبعة. ويكاد فلاسفة اليونان يُجمعون على تحبيذ تحديد النسل.

أنشأت أثينا ساحات للألعاب ومدارس للرياضة، ولكن المدينة لم يكن فيها مدارس عامة أو جامعة تديرها الدولة، بل ظل التعليم فيها في أيدي الأفراد. وكان المدرسون المحترفون ينشؤون مدارسهم الخاصة يُرسل إليها الأبناء الأحرار في سن السادسة، وكان التلميذ يبقى في المدرسة حتى يبلغ الرابعة عشرة من عمره أو السادسة عشرة إن كان من أبناء الأغنياء. وكان المدرس يدرِّس كل المواد، ويعنى بالأخلاق كما يُعنى بالعقول ويستعمل النعال للتأديب. وكان منهج الدراسة ينقسم ثلاثة أقسام: الكتابة والموسيقى والألعاب الرياضية. وأضاف المجددون أيام أرسطو إلى هذا المنهج: الرسم والتصوير. وكانت الكتابة تشمل القراءة والحساب، وكانوا

---

[1] ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني من المجلد الثاني (حياة اليونان)، ص 103.

[2] – نفس المرجع، ص 131

يستعملون الحروف لا الأرقام، أما البنات فكن يدرسن في منازلهن وكان تعليمهن يقتصر في الغالب على تدبير المنزل والغزل والنسيج والقراءة والكتابة والحساب، ويقوم بالتعليم الأمهات. هذا بالإضافة إلى التطريز والرقص والغناء والموسيقى.

وكان الرجال يتعلمون على يد علماء البلاغة والسوفسطائيين يلقنونهم فن الخطابة والعلوم والفلسفة والتاريخ. وكان هؤلاء المدرسون المستقلون يستأجرون قاعات للمحاضرات بالقرب من مدارس الألعاب الرياضية.

وإذا بلغ الأولاد سن السادسة عشرة، كان ينتظر منهم أن يعتنوا عناية خاصة بالتربية البدنية التي تعدهم بعض الإعداد إلى الأعمال الحربية، وكانت ألعابهم العادية نفسها تعدهم من طريق غير مباشر لهذا الغرض عينه، فقد كانوا يتدربون على الجري والقفز والمصارعة والصيد وقيادة العربات وقذف الحراب، وإذا بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم بدأوا المرحلة الرابعة من مراحل الحياة وفيها ينخرطون في صفوف شبان أثينا المجندين المعروفة بمنظمات الشباب Epheboi وكانوا في هذه المرحلة يدربون على مدى عامين على أيدي مدربين على القيام بالواجبات العسكرية فكانوا يأكلون مجتمعين ويلبسون حللاً رسمية ذات روعة وبهاء ويخضعون لرقابة خلقية [1].

وكان الأساس الذي يقوم عليه صرح هذه الديمقراطية وهذه الثقافة هو إنتاج الطعام والثروة وتوزيعها بين الناس. وعماد المجتمع كله هو الفلاح أفقر الناس وألزمهم له. ولقد كان الفلاح – على الأقل في أتيكا – يعرف حقوقه السياسية ذلك أن المواطنين وحدهم هم الذين كانوا يحق لهم أن يمتلكوا الأرض، وكان الفلاحون جميعهم تقريباً يمتلكون الأرض التي يفلحونها.

وتربة أتيكا غير خصبة، فثلث مساحتها غير صالحة للزراعة، وقليلة الأمطار والموارد المائية، وكانت الحدائق والغياض المحيطة بأثينا تستفيد من مجاري المدينة التي كانت تصب كلها في مجرى كبير متصل بخزان عام خارج (ديبلون) ثم يُنقل ماؤها من هذا الخزان إلى قناة ثم إلى وادي نهر سفسوس. وكانوا يحرثون ويبذرون الحب في فترة الخريف القصيرة، وكان موسم جني الحبوب يحل في مايو، وأما فصل الصيف الجاف فكان موسم الاستعداد والراحة. ومع هذه العناية فإن أرض أتيكا تنتج من الحبوب ما يكفي ربع سكانها فقط، ولولا الطعام المستورد من الخارج لهلكت أثينا

[1] – المرجع السابق، ص 83 – 84

جوعاً، وكان هذا هو الذي دفعها إلى الاستعمار وأوجب عليها أن تنشئ أسطولاً قوياً تسيطر به على البحار. وحاول الريف أن يستعيض عن محصوله الضئيل من الحبوب بمحصول موفور من الزيتون والعنب، فدُورّجت جوانب التلال وأجريت لها المياه. وكانت أشجار الزيتون تغطي كثيراً من الأراضي في بلاد اليونان في أيام بريكليس. ولكن الفضل في نقل أشجار الزيتون يعود إلى بيزاستراتوس وصولون. ولقد كان ائتلاف البساتين في حرب البليونيز من الأسباب التي أدت إلى اضمحلال أثينا.

وقد بلغ من عظيم شأنه في أيام بريكلس أن احتكرت الدولة تصديره وإن ابتاعت به وبالنبيذ ما كانت تضطر إلى استيراده من الحبوب وكانت تحرم تصدير التين. ولم تكن تربية الماشية مورداً للطعام خليقاً بالذكر، وكانت الخيول تُربى لتستخدم في السباق، والأغنام لتؤخذ منها الأصواف، والبغال والحمير للنقل، أما الخنازير فكانت تربى بكثرة ليؤكل لحمها، وكانوا يعنون بتربية النحل. وكان اللحم من مواد الترف لا يأكله الفقراء إلا في أيام الأعياد. أما السمك فكان طعاماً عادياً ومتعة في آن واحد. وكان الفقير يبتاعه مملحاً ومجففاً، والغني يستمتع به طازجاً. وكانت الحبوب تؤكل سليقة وخبزاً وكعكاً وكثيراً ما كانت تُخلط بعسل النحل. وكانت الفاكهة قليلة، ولم يكن البرتقال والليمون من الفاكهة المعروفة. وكان كل شيء تقريباً يُطهى ويجهز بنار زيت الزيتون، وما من دار كانت تخلو من النبيذ. وكانوا يحتفظون في الأرض بالثلج والجليد الطبيعيين ليبردوا بهما النبيذ في أشهر القيظ، وكانوا يعرفون الجعة في عصر بريكليس. واليوناني بوجه عام مقتصد في طعامه يُقنع بوجبتين في اليوم.

كانت أرض أتيكا تنتج المعادن والوقود كما تنتج الطعام وقد عريت الغابات والتلال القريبة من المدن لكثرة ما قُطع من أشجارها للوقود والبناء. كانت الأرض غنية بالرخام والحديد والفضة والرصاص. وكانت هذه المناجم أكثر ما تعتمد عليه الحكومة، ولم يكن يقوم بالعمل فيها سوى العبيد، وكانت الحكومة تؤجر المناجم مقابل جزء من 24 جزءاً من غلتها في العام وكان عدد العبيد في المنجم يبلغ أحياناً عشرين ألفاً وكان منهم المشرفون عليهم والمهندسون. وكانوا يعملون في نوبات تطول كل منها إلى عشر ساعات. ولم يكن العمل ينقطع ليلاً أو نهاراً، فإذا ما تباطأ العبد أو استراح، ألهب المشرف عليه ظهره بالسوط، وإن حاول الهرب صفّد بالأغلال، وإذا هرب وأُلقي القبض عليه كويت جبهته بالحديد المحمى. وكان العبيد يعملون في

المناجم الضيقة بالأزاميل والمطرقة وهم جاثون على ركبهم أو منبطحون على بطونهم، أو مستلقون على ظهورهم. وكانت الأرباح التي تُجنى غاية في الضخامة، وقد أصبحت خزانة أثينا بسببه تعتمد كل الاعتماد على المناجم، ولما نضب معين المناجم في القرن الرابع كان نضوبها أحد العوامل الكثيرة في اضمحلال أثينا، وذلك لأن أرض أتيكا ليس فيها معدن ثمين غير الفضة[1].

وإذا أنتج الفرد أو الأسرة أو المدينة أكثر من حاجته أو حاجتها، نشأت التجارة، ومع صعوبات النقل والمواصلات البرية والبحرية بالإضافة إلى اختلاف وسائط التبادل بين المدن والدول، واختلاف آخر في الموازين والمقاييس والمكاييل فقد عمل اليونان في التجارة البرية والبحرية على نطاق واسع مضطرين لذلك لحاجتهم إلى منتجات المدن والدول المجاورة ولقلة منتجاتهم الغذائية. انتقلت أثينا من الاقتصاد المنزلي إلى الاقتصاد الحضري ثم إلى الاقتصاد الدولي، واستطاع الأسطول الأثيني أن يطهّر البحر من القراصنة وازدهرت التجارة من عام 480 إلى عام 430 وكان التجار يحملون من (بيرية) ما تنتجه حقول أتيكا وحوانيتها من الخمور وزيت الزيتون والصوف والمعادن والرخام والخزف والأسلحة، ويأتون إلى (بيرية) بالحبوب من آسيا الصغرى وسوريا ومصر وايطاليا وصقلية، وبالفاكهة والجبن من صقيلية وفينيقية وباللحوم من فينيقية وإيطاليا والسمك من البحر الأسود والنحاس من قبرص والقصدير من بريطانيا والخشب من تراكية وقبرص والأقمشة من بلاد الشرق والزجاج من مصر.

ولم تكن المستعمرات أسواقاً فحسب بل كانت فوق ذلك وكالات شحن ترسل البضائع الأثينية إلى الداخل. وهذه التجارة هي التي جلبت الرخاء لأثينا وكانت مع خراج مستعمراتها عماد رقيها الثقافي، وذلك أن التجار الذين كانوا ينتقلون مع بضائعهم إلى جميع بقاع البحر المتوسط كانوا يعودون إليها بنظرات إلى الحياة تختلف عن نظراتهم قبل خرجهم من بلدهم، وبعقول متفتحة وكانوا يأتون بأفكار وأساليب جديدة، يحطمون بها القيود القديمة والخمول القديم. وفي أثينا التقى الشرق بالغرب، وبفضل هذا الالتقاء خرج كلاهما من أساليبه المألوفة العتيدة، وفقدت الأساطير

[1] – المرجع السابق، ص 49.

القديمة سيطرتها على نفوس الناس وزاد الفراغ، وشُجّع البحث ونشأ العلم والفلسفة، وأصبحت أثينا أكثر مدن زمانها حيوية ونشاطاً[1].

إنّ الذين يقومون بالعمل في الريف هم المواطنون: أسرهم وعمال أحرار مأجورين أما في أثينا نفسها فكان يعمل المواطنون وبعض العتقاء ويؤدي الكثير منه الغرباء المهاجرون ويؤدي معظمه الأرقاء. ويكاد أصحاب الحوانيت والصناع والتجار ورجال المصارف أن يكونوا كلهم من الطبقات التي ليس لها حق الانتخاب. وكان أهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوي، ولا يؤدون منه إلا القليل الذي لا بد له من أداءه، لأن العمل لكسب العيش كان في اعتقادهم يحط من قدر صاحبه، بل إن الأعمال المهنية، وتعليم الموسيقى والنحت والتصوير كان في نظر الكثيرين من اليونان مهنة دنيئة.

وكان ينظر إلى التجارة هذه النظرة نفسها، فكان اليوناني الأرستقراطي النزعة أو الفيلسوف لا يعدها إلا وسيلة لجمع المال مع إلحاق الأذى بمن يجمع منهم. ويقول اليوناني: إن الحر يجب أن يتحرر من الواجبات الاقتصادية وأن عليه أن يستخدم العبيد وغيرهم من الناس ليعتنوا بشؤونه المادية. وهذا التحرر هو الذي يترك له الوقت للقيام بأعباء الحكم والحرب والأدب والفلسفة، فإذا لم توجد هذه الطبقة المتفرغة لهذه الشؤون، لم يوجد، كما يرى اليوناني، ذوق راق، ومن يكون في البلاد لن يشجع الفنون، ولن تقوم للحضارة قائمة على الاطلاق. وكان الغرباء الأحرار هم الذين يؤدون في أثينا معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى. فكان منهم رجال المهن والتجار والمقاولون والصناع والمديرون للأعمال التجارية والصناعية وأصحاب الحوانيت... الخ.

وقد استقر هؤلاء في أثينا لأنهم وجدوا فيها، بعد تجوالهم في البلاد الأخرى، ما ينشدونه من الحرية الاقتصادية وفرص الحياة والحافز على العمل وبذل الجهود، وهذه أهم في نظرهم من الانتخاب. ولذلك كانت أهم الأعمال الصناعية – خارج نطاق التعدين – ملكاً لهؤلاء الغرباء الأحرار. وكان في أثينا سوق يقف فيه العبيد متأهبين لأن يفحص عنهم وهم مجردون من الثياب وأن يساوم على شرائهم في أي وقت من الأوقات.

---

[1] – المرجع السابق، ص 54 – 60

وكانوا يشترون إما لاستخدامهم في العمل مباشرة، أو لاستثمارهم، فقد كان أهل أثينا يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يؤجروهم للعمل في البيوت أو المناجم أو المصانع، وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى (33٪)، وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبدين. وكان عددهم في بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين. أما في الريف فكانوا قليلي العدد، ولم يكن الأهلون في شمالي البلاد وفي معظم البيلوبونيز في حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق أبيض. وكان العبيد في كورنثه وميجارا وأثينا يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة، كما كانت الجواري يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة. وكان العبيد يقومون بجزء كبير من الأعمال الكتابية ومعظم أعمال الصناعة والتجارة والشؤون المالية ولم يكن هناك عبيد علماء. وقلما كان يسمح للعبد بأن يكون له أبناء لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته. وكان هؤلاء يعاملون بقسوة، وكان يُعفون من الضرائب ومن الخدمة العسكرية. ومع هذا فإن ضمائر الأثينيين لم تكن ترتاح إلى وجود الرق في بلدهم[1].

وها هو ذا أفلاطون يندد باستعباد الإنسان، ولكنه كان يقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولاً ممتازة. وينظر أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية.

إننا إذا استثنينا عدداً قليلاً من العائلات الغنية نجد أنه لم يكن في أثينا القديمة هذا التفاوت الظاهر بين الغنى الفاحش والفقر المدقع الذي نعهده في يومنا هذا.

ولم تكن الحياة حياة بدائية بسيطة فحسب، وإنما كانت خالية من تعقيدات الحياة الحاضرة. فقد كان العرف يقضي أن يكون حجم البيت صغيراً، لأن المدن الإغريقية ذاتها كانت في بادئ الأمر مدناً صغيرة، والبيوت فيها مزدحمة متلاصقة ضمن أسوار تحيط بها وذلك لسهولة رد العدو عنها. حتى أنه بعد أن كبرت المدن واتسعت، وبعد أن أصبحت هضبة الأكروبوليس ملجأ لا يكفي السكان للجوء إليه زمن الخطر، بل أصبحت مزاراً فيه هياكل للآلهة، وبالرغم من أن أسوار المدن اتسعت فان حجم البيت الإغريقي، حسب العرف، ظل صغيراً. ولم يكن المواطن الإغريقي يجرؤ أن يظهر بمظهر الغنى والترف خشية الحسد، تلك الصفة التي كان الإغريقي يتميز بها. فقد كان كل إغريقي ينظر إلى جاره نظرة ريبة وحذر. وفضلاً عن هذا كله فإن مناخ

[1] – المرجع السابق، ص 62 – 69

البلاد الدافئ يدعو السكان لقضاء أكثر أوقاتهم خارج البيوت، وكانت روح الرجولة في ذلك العهد تدفع الرجل إلى أن ينظر إلى البيت على أنه مجرد مأوى أو مسكن يبيت فيه لاعتباره حرماً للعائلة. يقول أرسطو:"يجتمع الناس في المدينة لكي يقيموا بها ولكي ينعموا بطيب العيش " ومع أنه كان يتكلم عن المدينة في عمومها، فلا بد أن وطنه أثينا كان في خاطره. ولا بد أن أرسطو لم يقصد بتعبيره ((الحياة الطيبة)) الراحة الجسمانية والمتاع المادي، فقد لاحظ زائر يوناني: ((أن الطريق إلى أثينا طريق يدخل السرور على القلب، فهو يخترق حقولاً مزروعة من أوله إلى آخره. أما المدينة فلا تسقط عليها الأمطار، وتعاني في نقص المياه. والشوارع ليست إلا أزقة عتيقة يائسة، ومنازلها متواضعة قليلها حسن. وحين يصل الغريب إليها لأول مرة لا يكاد يصدق أن هذه هي أثينا التي طالما سمع عنها)).

الواقع أن أثينا كانت تجهل المرافق الصحية التي تمتعت بها مدينة (أور) السومرية أو مدينة (هاربا) الهندية قبلها بألفي عام. وكانت بيوتها تشاد بالبن مع أسقف من القرميد أو حتى من الطين والقش. ولم تكن الشوارع مرصوفة فكان الضيق منها يتحول إلى طين في الربيع وتراب في الصيف. ولم تكن نيران الفحم النباتي بقادرة على محو لسعة الشتاء تماماً، وكانت البيوت الصغيرة المشيدة من طابق واحد تصبح أشبه بالأفران في الصيف.

كان الأثينيون يشيدون بيوتهم الطينية على جوانب أسواقهم الضيقة المعوجة، فكان منظر تلك الأسواق، لدى المارة، منظراً كئيباً. وكان صحن الدار الطلق مركزاً تقضي العائلة فيه أكثر أوقاتها، وإذا كان للبيت طبقة ثانية فإنها كانت تخصص لغرف النوم. وكانت الكراسي والمناضد وسائر أثاث البيت تتمشى في أشكالها وأحجامها مع بساطة العيش، لأن الإغريقي لم يبال بتطوير تلك الحاجات الضرورية والاهتمام بجمالها، إذا كان يهدف أولاً إلى الناحية النفعية فيها، ثم إلى جمال أشكالها. لذا لم يرَ موجباً لتطويرها. وهذا يصدق أيضاً على الزي في اللباس، فقد كان ثوب الرجل الإغريقي، على مدى أجيال عديدة، ثوباً قصيراً عريضاً مصنوعاً من الصوف.

كان الأكروبول قبل أن يصبح متحفاً لفن الرخام (وهو أجمل متحف من نوعه في العالم) مصدراً لحياة الأثيني ومصدر خصوصية هذه الحياة ومعناها. ففي أهم

مهرجانات المدينة (الباناثينيا) Panathenea [1] كان الأثينيون يتوجهون في موكب يصعد متعرجاً على منحدرات الأكروبول حيث كانوا يتجمعون لتقديم هداياهم للربة أثينا. وأفلحت مواسم الابتهاج والسرور والمهرجانات الجماعية في جعل الناس يتلاقون بمدينتهم ويتعلق بعضهم ببعض بمثل ما شحذت فيهم (الإكليزيا) أي ((الجمعية الشعبية))، حاسة المشاركة السياسية.

فالآلهة والجبل المقدس والكهوف والينابيع والمزارات ربطت الأكروبول بسحر الماضي النيوليتي وشعائره. وكذلك فإن الساحة حيث ((السوق)) وحيث يتجمع الناس، هي توكيد لبقاء ((ميدان القرية)) واستمراره، أو إذا توخينا الدقة فهي بقاء لتلك الساحة الدائرية المكشوفة التي كان يتلاقى فيها القرويون، يعرض البعض منهم سلعهم. إن السوق تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للمهمة التي يقوم بها مكان التجمع حيث يلتقي سكان البلدة، في حين يجلس المسنون على الأحجار المصقولة في وسط الدائرة المقدسة للقضاء في أمر قروي (مذنب مثلاً). ثم غلب السوق على ملتقى المدينة. ومما لا شك فيه أن تداول الأفكار والشائعات قد سار جنباً إلى جنب مع تبادل السلع. فقد كانت الساحة أشد عناصر المدينة حيوية، وكان الميدان المتسع يموج بالحركة. فبين النافورة والمقاعد الطويلة المغطاة بالسيراميك يتنافس بائع السجق وصانع الفضة على موضع. وعلى الدرجات بين سوق السمك والمعبد أوقف سقراط (القبيادس) ليتحدثا عن ((الأشكال المختلفة للفضيلة)) – ولكي يهرب من زوجته أيضاً. ويعلون صوت شرذمة تتجادل في أمر الحرية في اسبارطة مع اقتراب صبيين يعزفان على الناي. وهذا فلاح وحماره يزاحمان أفلاطون الذي تريث يتأمل نجاراً يقوم بعمله في مكانه المكشوف[2]، وإذا أراد الأثيني معرفة الوقت من النهار فإنه كان ينظر إلى ساعات الماء أو الساعات الزوالية المقامة هنا وهناك.

---

[1] – عيد الآلهة أثينا بالاس وهو عيد قديم يرجع إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد 566 ق.م يقام مرة كل أربع سنوات، وتقام أثناء الاحتفالات مواكب ومباريات رياضية ومباريات شعرية. وينظّم هذه المهرجانات فريق من رجال الدين. أما الذين اشرفوا على تنظيم الأعياد الكبرى اعتباراً م القرن الخامس فهم أعضاء المجلس الاستشاري (البولي) والمشرفون على مالية المعبودة أثينا بالاس.

[2] – كافين رايلي: الغرب والعالم، الجزء الأول، ترجمة عبد الوهاب المسيري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 103، 1985، 105-.

إنّ المرء ليعجز عن تصوير حياة مدنية أكثر بساطة من حياة الإغريقي، ولكن الإغريقي معروف بقدرته على الدمج بين الحياة البسيطة والتفكير الرفيع.

إنّ تاريخ أوربا يبدأ بالشعب الإغريقي الذي لم يكن في تاريخه القديم شيء يشبه المآثر والمفاخر التي نعهدها في هذه الفترة من الزمن.